العرب
السبت 2019/10/26
السنة 42 العدد 11509

«كل الحروب تنتهي بالحديث».. نصيحة من جندي بريطاني سابق أصبح صحافيا

زيارة عدنان سروار للعراق كصحافي غيرت نظرته إلى الحرب

في 2003، كان عدنان سروار في صفوف الجنود البريطانيين غازيا للعراق. وعمل على ما رآه تحريرا للملايين من الأبرياء الذين يعانون من نظام صدام حسين. بعد 15 عاما، عاد سروار إلى العراق التي حارب فيها لكن كصحافي ليرى ما حل بالعراق.

حمل هاتف يختلف عن حمل سلاح

لندن – "كل الحروب تنتهي بالتحدث مع بعضنا البعض. إذن هيا نتحدث".. هذا ما يؤمن به عدنان سروار الجندي السابق في الجيش البريطاني الذي حارب في العراق وتحديدا في مدينة البصرة.

عاد سروار إلى العراق بعد سنوات من تجربته العسكرية هناك، لكن هذه المرة كصحافي لتصوير فيلم لصالح محطة بي.بي.سي. بحث عن أماكن الاشتباك التي شعر فيها بالخطر على حياته، حتى أنه التقى عراقيا شارك في نصب كمين ضد دوريته.

ويؤكد سروار الذي كان يتحدث أمام جمهور ضمن فعالية "مهرجان المستقبل المفتوح" الذي تنظمه مجلة ذي إيكونوميست البريطانية (The Economist's Open Future Festival) أن تجربته في العراق جنديا وصحافيا علمته أن الصراعات سواء أكانت حروبا أم حتى نقاشا آخر مثل خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي كلها يجب أن تنتهي بـ"الحديث".

> العودة إلى العراق منحت، الجندي السابق في الجيش البريطاني، فرصة للبحث عن إجابات لأسئلة لم تغادر ذهنه

وقال سروار "توجهت إلى العراق للمرة الرابعة. كانت كل زيارة منها مهمة لي. كانت أول زيارة لي لهذا البلد المهم في سنة 2003، عندما كنت جنديا بريطانيا صغيرا. كان عملي هناك ضمن الحرب التي أسقطت نظام صدام حسين، ورأينا أنفسنا على أننا 'محررون'.

بعد سنوات قليلة، عدت مع الجيش البريطاني في سنة 2006 إلى بلاد لم نعتبر فيها رمزا للحرية وإنما للغزو. وزرت البلاد ثالث مرة كصحافي تابع لـ'ذي إيكونوميست'، حيث نقلت الأحداث الجارية في منطقة الموصل التي اجتمع فيها المقاتلون الأجانب المتحدون مع الأكراد لمحاربة داعش.

كانت رحلتي الأخيرة مختلفة، حيث تجولت في البلاد، من المناطق التي يسيطر عليها الأكراد إلى البصرة والجوامع والحقول النفطية. وكان وجودي في البلاد مدفوعا بعملي على فيلم وثائقي لصالح قناة بي.بي.سي البريطانية. عدت لأرى ما حل بالبلاد التي أصبحت منطقة للحرب".

يضيف سروار "أعلنت الحكومة قبل فترة قصيرة من زيارتي عن هزيمة الدولة الإسلامية المعروفة باسم 'داعش' بين المواطنين الذين يكرهونها. وكجزء من عملي، وجدت نفسي أمام أشخاص لم أتوقع أن أبادلهم أطراف الحديث قبل عقد من الزمن. قابلت نساء من قوات البيشمركة الكردية وهن يرددن أغاني البوب، ولمست تماثيل نينوى، وتحدثت إلى مزارعين عن خطر الكوارث الطبيعية حيث عبروا عن حنينهم لصدام الذي 'حافظ على الأمن في البلاد'".

لقد منحت العودة إلى العراق في سن التاسعة والثلاثين، الجندي السابق في الجيش البريطاني، فرصة للبحث عن إجابات لأسئلة لم تغادر ذهنه. وأكد "غادرت القوات البريطانية بعد عقد من الخدمة في صفوفها وبقيت كوابيس تلك الفترة تلاحقني. لكنني شعرت بنوع من الحنين إلى نشاطي العسكري. وعندما عدت إلى العراق لأنقل أخبار القوات الأجنبية التي اتحدت مع الكرد، نمت رغبة داخلي وتمنيت الانضمام إلى الحرب".

ويؤكد الصحافي البريطاني أن شعوره اليوم كصحافي يختلف مع نظرته إلى الحرب كجندي".

ويتساءل "كيف أحس المسلمون المنتمون إلى الجيش البريطاني؟ أصلي باكستاني لكنني بريطاني. عانيت من التنمر والسخرية في المدارس لكنني تركت كل ذلك ورائي عندما اخترت الانضمام إلى القوات البريطانية. أردت أن أخوض مغامرة مختلفة وربحت حفنة من الأصدقاء الذين كانوا إلى جانبي في مواجهة الخطر ومازالت العلاقة بيننا حميمة إلى اليوم".

من جانب آخر يقول "إن العراقيين أحسوا ببعض الارتياح بفضل اسمه العربي، لكن البريطانيين كانوا يخافون تبعات ذلك. وخافوا أن أصبح رهينة يعذبها المتمردون".

يتذكر عدنان الضربة التي وجهت إليه وخسر فيها واحدا من أعز أصدقائه. لكنه عاد إلى بلده حيا، ليستمع إلى شهادات الناجين الآخرين الذين تحدثوا عن تجاربهم المؤلمة كصحافي. إنه يتذكر كل ما قالوه إلى اليوم.

رغم ذلك يعترف الصحافي البريطاني بأن "الزي العسكري غير حياته إلى الأفضل، وأعطاه الشجاعة والرغبة في العيش، وكوّن شخصيته".

صحح عمله في الصحافة توجهات عدنان الذي أكد أنه "كان يظن أنهم يساعدون العراق. لكن العراقيين تظاهروا ضد وجودنا هناك قائلين إن حكومة بريطانيا كانت تحاول غزو بلادهم". ويضيف "يسألني العديد من الأشخاص عن العراق، وعما غيّره الجنود هناك. ولا أعرف كيف أجيبهم. وجدت نفسي أتساءل عما إذا ساهم جنود بريطانيا والولايات المتحدة وغيرهما من البلدان في تفاقم الفوضى هناك.

يؤكد سروار "قرأت عن تاريخ العراق المضطرب والحرب التي بدأت سنة 2003، والتي أودت بحياة أكثر من 200 ألف عراقي. وعندما وجدت نافذة للعودة، تمسكت بالفرصة".

ووفق وصفه إذا طلب منه أحدهم أن يصف العراق بثلاث كلمات، فمن المرجح أن تشمل "النفط"، "صدام"، "الحرب".

يعترف الصحافي البريطاني بأنه أخبر جل من قابلهم عن أنشطته السابقة في الجيش البريطاني وكانت استجاباتهم مختلفة. لام البعض القوات على غزو البلاد، وعبّر البعض عن استيائهم من "عدم إتمامها لمهمتها".

ويقول "تحدثت إلى مزارع أخبرني بأنه يفضل القوات البريطانية على الأميركية التي أرادت الوصول إلى بغداد واقتلاع تمثال صدام وإعلان النصر. ولتحقيق ذلك في فترة وجيزة، اتبعوا عمليات عنيفة بينما توقف الجنود البريطانيون لاحتساء الشاي. ويرى البعض في بغداد قدرة على تمالك نفسها إن تركت بمفردها دون أي تدخل أجنبي".

الأخطر من سقوط هيبة اللغة تسليع الذات على وسائل التواصل

كرم نعمة
كاتب عراقي
مقيم في لندن

هل يجدر بنا أن نفند الفكرة القائمة وبقوة اليوم بشأن أن تكون كاتبا، هذا يتطلب منك أن تجعل من نفسك منتجا جاهزا للاستهلاك العام على مواقع التواصل؟ أن يكون نصك مُنتجاً مُستهلكا غير أن تكون مقروءا، القراءة بمفهومها المعرفي لا تنطبق على ما نقرأه على مواقع التواصل.

لا تبدو الحاجة ماسة وعاجلة للكثير من الكتاب لتفنيد ذلك الواقع الرقمي القائم، مع أنه نزول عن هيبة اللغة لتقديم صورة سطحية ملائمة لجيل الويكيبيديا عن طبيعة الكتّاب على مواقع التواصل الاجتماعي.

الأمثلة قائمة وبسيرة في التناول، لنأخذ مثلا الروائي البرازيلي باولو كوهيلو، عليه أن يكون مادة "للاستهلاك" على مواقع التواصل الاجتماعي عندما يتأمل هذا العدد المخيف من المتابعين له، يكفي أن نشير إلى أن حسابه على تويتر يتابعه أكثر من 15 مليون شخص، وتلك خدمة مغرية لا توفرها أعداد القراء الطبيعيين لكتبه.

مع ذلك، يصعب أن نجد معادلا موضوعيا بين القارئ لروايات كوهيلو وبين نسبة كبيرة من ملايين متابعيه على تويتر، بالطبع لا يندر أن يكون من بين هؤلاء الملايين من هم قراء حقيقيون وشغوفون بروايات الكاتب البرازيلي، لكن ذلك ليس كافيا لإيجاد المعادل الموضوعي.

لن يتردد المستاؤون من تأثير مواقع التواصل الاجتماعي على مفهوم المعرفة في القول بأن كوهيلو "يبيع نفسه" على وسائل التواصل الاجتماعي، فإغراء الملايين من المتابعين أكبر من أي مبرر إبداعي آخر. وهنا يكمن الخلاف بشأن معرفة الخط الفاصل بين إخلاص المؤلف لجوهر الكتابة وحدها وبين شهرة أسلوب الحياة الرقمي الجديد.

علينا ألا نخلط مفاهيم الشهرة الرقمية عندما يتعلق الأمر بعارضات الأزياء ونجوم السينما والغناء والرياضة، وبين من يصنع أفكارا، من السهل أن تبيع عارضة أزياء جميلة أو لاعبة تنس رشيقة صورها المغرية بعد نشرها على مواقع التواصل، لكن علينا أن نتفق على مفاهيم جديدة متعلقة بالأفكار التي يعرضها كتاب وأدباء ومفكرون على منصاتهم الرقمية.

سبق وأن حذر الروائي الأميركي جوناثان فرانزين الجيل المعاصر من إضاعة وقته في المزيد من التغريدات عبر تويتر، بدلا من تطوير أدواته في الكتابة.

هذا الكاتب الذي يوصف بأنه من بين أهم الروائيين المعاصرين، بعد أن وضعت أعماله في لائحة الأكثر قراءة، وصف الكتابة بأنها ليست مؤسسة طائفية جماعية كي تجمع حولها الآخرين، بقدر ما هي جهد خيالي شخصي.

وحذر فرانزين الكتاب الشباب الذين يجهدون أنفسهم على زيادة تغريداتهم على الشبكة الاجتماعية قبل النظر في مخطوطاتهم للنشر، لأنهم يعتقدون أن لا أحد من الناشرين سينظر في مخطوطاتهم قبل أن يكون لديهم 250 من المتابعين على تويتر.

ويعتقد أن التكنولوجيا تركت عواقب غير مقصودة على الكتابة الإبداعية عبر وسائل الإعلام الرقمية خلال العقدين الماضيين.

المشكلة تكمن في أن الكثير من الكتاب يعرّفون أنفسهم بسطحية تهدد هيبة اللغة وجوهر الكتابة، في نشر رسائل إخبارية ومدونات قصيرة تتمحور حول الصورة أو النشاط الاستهلاكي الذي يتكرر عند كل الناس، في يوميات خالية من العمق والتأمل في أحوال العالم، وهذا يكشف عن نوايا الكاتب غير الإبداعية عبر فكرة البيع القائمة في البحث عن المزيد من الأصدقاء الافتراضيين، وهم في حقيقة الأمر لا يشكلون معادلا بأي حال من الأحوال للقراء الفعليين، أو بتعبير الروائي الألماني الراحل غونتر غراس الذي وصف مواقع التواصل الاجتماعي بـ"الهراء" مطالبا بالابتعاد عنها ورافضا أن يكون جزءا منها بقوله "إن الفكرة التي تخضع للاتصال بصورة مستمرة، والتي ربما تتعرض للمراقبة، هي فكرة بغيضة".

يمكن للقراء الحقيقيين، إذا افترضنا وجود ما يمكن أن يسمى بقارئ افتراضي متسرع، عدم الاهتمام بتسويق مشاهير نجوم الفن والسياسة لأنفسهم على مواقع التواصل، لكن من الصعب أن يسامحوا كاتبا ألهمهم عندما يجدونه يقدم نفسه مثل أي منتج آخر للاستهلاك التجاري على الإنترنت. الخيبة تكمن في تقديم الأفكار الإبداعية كمنتجات قابلة للتدخين أو الارتداء أو الازدراء!

> مواقع التواصل ليست ممثلا معبرا عن الكتّاب والكتابة معا، فجوهر الإبداع أكثر أهمية من التمثيل على الحسابات الشخصية

عندما يتعلق الأمر بما يسمى "بناء العلامة التجارية الشخصية" فيبدو من الأفضل للكتاب ترك نصهم أن يفعل ذلك، فليس من مصلحة الكتابة أن يقدم متنها نفسه بطريقة مثلما تفعل صورة عارضة جميلة في حسابها.

إن لم تكن مشهورا على وسائل التواصل، فهذا لا يمت بصلة إلى نوعية منتجك الإبداعي، بيد أن الأمر برمته ليس مصدرا للقلق بالنسبة للكاتب كما يرى جوناثان فرانزين. فالملايين الذين يتابعون كوهيلو على تويتر ليسوا هم العينة المثالية لقرائه. ذلك ما يجعله أقل قلقا من ذلك الانهماك المستمر الذي ينقل فيه كل ما يصادفه في الحياة على حسابه، وفي حقيقة الأمر أنا أشك بأنه يدير مثل هذا الحساب الذي يتطلب مجهودا إعلاميا جبارا، لأن الوقت الذي يقضيه في التفاعل مع ملايين المستخدمين يتطلب منه أن يقضي وقتا مضاعفا آلاف المرات عما يخصصه لكتابة رواياته، وهذا أمر يدفعنا للتحذير من تحول الكتابة من إبداع فردي ملهم إلى مؤسسة جماعية تدار من قبل فريق رقمي يتطلب إدامة حساب شخصي على مواقع التواصل.

الكتابة الحقيقية أكثر أهمية من تسليع الذات عبر التغريدات العابرة والسطحية، ومواقع التواصل ليست ممثلا معبرا عن الكتّاب والكتابة معا، فجوهر الإبداع أكثر أهمية من التمثيل على الحسابات الشخصية التي أضحت فضاء للغريزة أكثر منها مساحة لصناعة الأفكار العميقة وتبادل المعلومات.

وفي كل الذي يحصل في العصر الرقمي لا أحد محصن من هذا الإغراء الذي صار شغفا تقودنا إليه أجهزتنا التي أضحت عينا ثالثة. لكن الأخطر من كل ذلك هو الهبوط المريع لكتاب معروفين إلى الثقافة السائدة وتهديم اللغة بمعاول التعابير الركيكة بلهجة دارجة، والتكرار السطحي من دون أي خشية على هيبة اللغة ورفعها. الأخطر من تسليع الذات بالنسبة للكتّاب على مواقع التواصل هو التعريف بأنفسهم كجزء فعال من "جيوش الحمقى" الذين يعج بهم الفضاء الرقمي وفق تعبير أمبرتو أيكو.